

إنها سنون خداعة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ، وبعد

فهذه المقالة امتدادًا لتلك المقالة التشخيصية التي كتبها أخي الحبيب فضيلة الشيخ أحمد بن سليمان حفظه الله، والتي ختمها بحديث أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّهَا سَتَاتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَاعَةٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُؤْتَى فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطَقُ فِيهَا الرُّوَيْضَةُ" قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْضَةُ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: "السَّفِيهَةُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ"

وفي لفظ: "وَيَنْظُرُ فِيهَا لِلرُّوَيْضَةِ"، وفي سياق حديث أنس: "الفويسقة يتكلم في أمر العامة"

وفي سياق حديث عوف بن مالك... قيل، وما الرويضة يا رسول الله؟ قال: مَنْ لَا يُؤْبَهُ لَهُ (١)

لما تأملت هذا النص وتدبرته عرضته على واقعنا الذي نعيش فيه فرأيتنا واقعا قلنا فيه الأمانة، وظهرت فيه وسادات الخيانة، وندر فيه الصادق، وظهر وساد فيه الكذب والخداع والمكر، وندر فيه الأدب وحسن الخلق، وظهر وساد فيه سوء الأدب والخلق..

رأيتنا مجتمعًا

قَدَّمَ وَسَيِّدَ الْخَائِنِ، وَاسْتَبَعَدَ الْأَمِينَ، قَدَّمَ وَسَيِّدَ الْكَاذِبِ، وَاسْتَبَعَدَ الصَّادِقَ

قَدَّمَ وَسَيِّدَ سِيءِ الْأَدَبِ، وَاسْتَبَعَدَ حَسْنَ الْأَدَبِ، قَدَّمَ وَسَيِّدَ السَّفِيهِ، وَاسْتَبَعَدَ الْحَكِيمَ

قَدَّمَ وَسَيِّدَ الْفَاسِقِ، وَاسْتَبَعَدَ الْحَكِيمَ، قَدَّمَ وَسَيِّدَ الْفَاسِقِ، وَاسْتَبَعَدَ الْعَادِلَ

(١) حسن بطرقه وشواهده. من حديث أبي هريرة واللفظ له عند أحمد (٢/٢٩١، ٣٣٨)، وابن ماجه (٤٠٣٦) وغيرهم. ومن حديث أنس عند أحمد (٣/٢٢٠) وغيره. ومن حديث عوف بن مالك عند الطحاوي في المشكل (٤٦٤) وغيره.

رأيته مجتمعًا لعبت الرشوة والوساطة فيه دورها في الزور والباطل، فقبلوا الأمور، فقبلوا وسيدوا الضعيف المتأخر، واستبعدوا القوي المتفوق المقدم، فقدموا وسيدوا من دفع الكثير، واستبعدوا من دونه، عظموا صاحب المال والجاه، وسيدوه، واحتقروا الفقير الوضيع وازدروه،

سمعوا للأغنياء الوجهاء، وأعرضوا عن الفقراء الضعفاء

رأيته مجتمعًا

صار العري والفجور فيه مدنية وحضارة، والاحتشام والتستر جمودًا وتحلفًا

صار الجهلاء في الدين أئمة وسادة بين العوام الهوام الجاهلين

صار الدين كلاً مباحًا للسفهاء والتافهين والمأجورين، وغير ذلك مما دار في خاطري

ثم سألت نفسي لماذا كل هذا؟ فأجبت نفسي بإجابة مختصرة لم أر غيرها، وهي: الانفلات من الزمام والبعد عنه وهو الدين الحنيف الرحمة للعالمين، وهذا الانفلات بلازم اتباع الهوى والتقليد الأعمى للكافرين المنحليين عن المبادئ والأخلاق، فلمّا انفلتوا من الزمام وابتعدوا عنه أهوا العقول، وطرحوا النقول وعلى موائد الحوار الزور اجتمعوا وكسروا الجذور بصانعي الأنعام خفافيش الظلام، فأوقعوا أنفسهم ومجتمعهم في البركان.

وصدق الرسول المصطفى ﷺ خير الأنام حيث قال: "إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَاعَةٌ"، وهذا من أعلام

نبوته الظاهرة حيث أخبر بما سيكون، وفي القرآن كلام الله تعالى {إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ} [الأنعام: ٥٠]

وقال ﷺ: "لَتَبْعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ [وباعًا ببيع]، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا [سلكوا] جُحْرَ ضَبِّ تَبِعْتُمُوهُمْ [سلكتموه]، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟" (٢)

وها نحن نرى حرية مطلقة في كل شيء حتى في الثوابت من ديننا السمح الخاتم، وحرية مطلقة في الرأي والفكر

وها نحن نرى بأعيننا ونسمع بأذاننا، وصدق رسول الله ﷺ "إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَاعَةٌ"، وهذا من بلاغة قوله ﷺ الدالة على الحقيقة والمجاز، فالسنون لا تخدع ولا توصف بالخداع وإنما الذين يعيشون فيها.

قوله "خداعة" من خدع تغير من حال إلى حال، وبهذا أشار إلى تغير حال الناس في السنين حيث تخلق الناس بغير أخلاقهم، وتلون فيها الناس فأظهروا خلاف ما يبطنون.

والخداع: إظهار ما يخالف الإضرار، وهو من النفاق قال تعالى: " {يُحَادِثُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [البقرة: ٩]

وفي حديث قيس بن سعد، قال: لَوْلَا أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " الْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ فِي النَّارِ " لَكُنْتُ أَمْكُرُ هَذِهِ الْأُمَّةَ. (٣)

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري، وابن ماجه (٣٩٩٤) وغيره وحديثهم حسن من حديث أبي هريرة.

(٣) صحيح لغيره. أخرجه ابن عدي (٤٠٩/٢) وغيره، وهولاء بأس به، وعن أنس أخرجه الحاكم (٦٠٧/٤) وغيره، وهو حسن، وعن ابن مسعود أخرجه ابن حبان (٥٥٥٩) وغيره وهو حسن.

وقد أظهر النبي ما حذر منه كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً "المؤمن يُطَوَّى عَلَى الخِلاَلِ كُلِّهَا إِلَّا الخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ" ذلك لأنهما رأس الضياع والخسارة في الفرد والأسرة والمجتمع والأمة

وفي حديثنا أخبر النبي ببلاغته عما يدور في هذه السنين، سيتغير فيها حال المسلم من الحسن إلى السيء، ومن الحلو إلى المر، ومن العزة إلى الذل، ومن القوة إلى الضعف، ومن احترام الدين وتعاليمه وتوقيره واتباعه إلى الاستخفاف به والتجرؤ عليه والتلون فيه.

كل هذا وغيره كثير في الخيانة والكذب، وما نطق الرويضة إلا بعد ترسخ ذلك فيه، لذا نراه عليه السلام أجمل فقال: **يُصَدِّقُ فِيهَا الكَاذِبُ، وَيُكَذِّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الخَائِنُ، وَيُحَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّويِضَةُ** " **قِيلَ: وَمَا الرُّويِضَةُ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: "السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ العَامَّةِ"** وفي لفظ: "ينظر فيه للرويضة. أي: نظر إكبار وتعظيم وإجلال، وهو لا يستحق ذلك.

والخيانة هي التفريط في الأمانة، وهي مخالفة الحق بنقض العهد في السر، وهي الغدر وإخفاء الشيء، وهي من النفاق كما في الصحيح، والخائن لا يحبه الله قال تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الخَائِنِينَ}**

[الأنفال: ٥٨]، وانتشار الخيانة في مجتمع فهو من علامات اضمحلاله، فهي داء يفتك بالمجتمع

عاجلاً أو آجلاً. وعكسها الأمانة

والكذب: هو الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه، وهو عدم المطابقة لما في النفس، وهو من النفاق أيضاً، فالكذب لص يسرق العقل كما يسرق اللص المال، الكذب وسيلة لدمار صاحبه ومجتمعه وأمته. فالكذب يورث فساد الدين والدنيا. وعكسها الصدق.

ومن تمام الكذب والخيانة ظهور الرويضة والنظر إليه والاستماع والتعظيم والإجلال له.

والروبيضة: تصغير الرابضة، وهو العاجز الذي ربض عن معالي الأمور، وقعد عن طلبها، فهو السفية الذي لا يحسن التصرف في الأمور- يتكلم في أمر العامة.

وهو التافه " الخسيس الخامل " يتكلم في أمر العامة، من تفه الطعام إذا سنخ، أي: تغير، وتفه الطيب إذا ذهب رائحته بمرور الأزمنة.

وهو الفاسق، وهو من لا يؤبه له، وصدق رسول الله ﷺ، فقد رأينا، وسنراه، وسيراه غيرنا بعد.

إن السعادة والعزة والنصرة لمن ثبت على مبدأه وأصله، ولا مبدأ ولا أصل حقيقة إلا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهما رأس الطريق المستقيم الذي على مطلعته سادات هذه الأمة، بعد نبينا ﷺ حملة الكتاب والسنة الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وفي الصحيح أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ "

والشرط مقابل المشروط وجودًا وعدمًا، نفيًا وإثباتًا فلننقحه ذلك، ولننقحه قول الله تعالى " {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا هُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد: ١١].

نسأل الله العفو والعافية والهداية والتوفيق

كتبه

صبري بن عبد المجيد